



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK

www.iraqieconomists.net

أوراق في التاريخ الاقتصادي

كتاب د. محمد علي رضا آل جاسم*: الائتمان والصيرفة في العراق القديم**. تقديم فاروق يونس

***.

نشر الدكتور محمد علي رضا آل جاسم كتابه **الائتمان والصيرفة في العراق القديم**** في بغداد في ستينيات القرن الماضي. بعد قراءتي للكتاب مؤخراً اقتطفت الفقرات أدناه ووزعتها كرسالة على بعض الأصدقاء والزملاء ومنهم الدكتور بارق شبر الذي اقترح نشر المقطعات في موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين لأهميتها التاريخية ولتعميم الفائدة. فله الشكر على مقترحه.

أمل أن تشجع هذه المقطعات القراء على قراءة هذا الكتاب، مثلما أمل أن يساهم المؤرخون بتعريفنا بما خفي من التاريخ الاقتصادي للعراق.

فاروق يونس - 15 تشرين الثاني 2017

- نحاول بادئ ذي بدء اطلاع القارئ على ناحيتين: الاولى نحدد فيها المدى الزمني للفترة التي فيها بدأت ونشطت حركة الائتمان والصيرفة البابلية، والثانية نحدد فيها المدى المكاني للرقعة التي قامت فيها الحركة وانتشرت فظهرت اثارها في كثير من المدن البابلية وغير البابلية، ثم نظرق الموضوع من جهة بيان موضع الائتمان



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق في التاريخ الاقتصادي

والصيرفة في علم الاقتصاد العام، وبعده نرسم الخطوط العامة للائتمان والصيرفة في النظام الاقتصادي العراقي في الوقت الحاضر.

- بدأت حضارة العراق القديم منذ اهتدى سكان العراق الاقدمون إلى قوتهم عن طريق الزراعة وتدجين الحيوان واستخدام المعادن في صنع المعدات وحاجات الحياة الاولية الضرورية

- لعل اهم فترة ظهرت فيها حضارة العراق القديم هي فترة السلالات الحاكمة للعراق في ظل الامارة والملكية وأبرزها تلك التي تنحصر ما بين 3500 ق.م وبين 538 ق.م.

- اذا كان علم الاقتصاد يتناول دراسة النشاط الانساني في كيفية الوصول إلى اشباع الحاجات وتحقيق الخدمات فإن موضع الائتمان بالنسبة له يقع في الطرق والوسائل التي يسلكها الفرد لبلوغ الهدف السابق، واذا كانت النقود واحدة من ابرز الطرق والوسائل المستخدمة في الحصول على الاموال والاشياء والخدمات فإن الائتمان يليها في الاهمية ان لم يتفوق عليها في كثير من الاحيان والظروف التي يكون التعامل والتبادل فيها مفتقرا إلى توافر عنصر الثقة والأمان ذلك العنصر الذي يعتبر الاساس في كافة عمليات وانواع وادوات الائتمان وعلى هذا يمكن ان يكون الائتمان وسيلة في ايقاع معاملات التبادل وتسهيل حصولها دون توسط النقود.

- ان الائتمان جزء مهم من اجزاء الاقتصاد يتمثل عن طريق ادواته (الصك والحوالة والسفينة) وعن طريق عملياته المتعددة في زيادة المنافع وزيادة الأموال والثروات وخاصة عن طريق عمليتي الإيداع والاقراض باعتبارها أبرز عمليات الائتمان والصيرفة واهمها.



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق في التاريخ الاقتصادي

- وبفضل الانتعاش الزراعي ووفرة الحاصلات في العراق القديم نشطت التجارة والمبادلات ولا سيما في القسم الجنوبي من العراق. كما ان حركة الصناعة بدورها انتعشت ودفعت الأفراد إلى صنع الآلات والمعدات من المعادن والاششاب والاحجار وغيرها مما كان موضوع تجارة وتبادل فضلا عما كان يستورد من الاقطار المجاورة والبعيدة. ولقد كانت الصناعة في اول امرها بدائية وقاصرة على سد الحاجات الضرورية وكذلك كانت صفة المبادلات التجارية ولكن توسع العلاقات مع الخارج شجع على زيادة وتحسين الصناعات وخاصة صناعات المعادن كالبرونز والنحاس والحديد على ايدي السومريين في مختلف شؤون الحياة. وقد فعل ذلك الاشوريين ايضا فاستخدموا المعادن والاششاب في الاسلحة والعربات كما استخدموا الاصواف في الحياكة وصنعوا الزيوت والاصباغ والصابون والعقاقير والمساحيق والمشروبات والصناعات الكيماوية المختلفة التي استخدمت للعلاجات وغيرها وإلى جانب استيراد السلع من الدول المجاورة كفارس والهند والاناضول وسورية ومصر وقبرص وتصدير المنتجات الزراعية والعطور والاشجار والانسجة للخارج كانت هنالك ايضا تجارة الرقيق التي كانت تحتل مكانا مهما في الحياة الاجتماعية البابلية ولقد تغلغت في الكيان الاقتصادي للإمبراطورية بحيث ان تجارة الرقيق خلقت ضربا خاصا من ضروب النشاط التجاري.

- ما هي الامور التي بعثت على سعة الحركة التجارية في العهد البابلي؟

- 1- وجود وسائط المواصلات (العربات البسيطة التركيب والسفن الشراعية والحيوانات المختلفة استخدمت لنقل السلع والاموال.
- 2- حماية المواصلات والطرق التجارية.



أوراق في التاريخ الاقتصادي

3- تنظيم شؤون التجارة.

4- استخدام وسائل الائتمان وانتشار نظام الصيرفة.

- ان حركة الائتمان المصرفي التي تميزت في العهد البابلي الأخير بصفات التكامل لم تعدم قوة التوسع وصفات التطور في الفترات القديمة التي تبدأ بالألف الرابع 3775 ق.م وهو العهد الذي عاش فيه (المعبد الاحمر) كأقدم مؤسسة مصرفية عرفها التاريخ البشري. ولم تقتصر حركة الائتمان على هاتين الفترتين بل شملت كافة الفترات والعهود وفي كل انحاء القطر في الجنوب في (اور) وفي الوسط في (بابل) وفي الشمال في (اشور) وفي غيرها من المناطق والمدن كما خدمت الحضارات المجاورة لبابل عن طريق الاتصال الودي في العلاقات التجارية بين العراق من جهة وبين البلاد الاخرى كالهند والاناضول وفينيقيا وقبرص وعن طريق الحرب واقامة المستعمرات في الشمال وخاصة في تركيا.

- ان ما تتميز به الحياة الاقتصادية بصورة عامة ان الناس يعيشون على المنتوجات الزراعية وكان في مقدمة اصحاب الملكيات كهنة المعابد من الذين يستحذون على كثير من الحقول الزراعية والبساتين والاراضي الصالحة لتربية الحيوانات والمواشي. ويلي هذه الطبقة فئة الملاك الكبار من خدم وعبيد الحاشية الملكية واقاربهم ووارثيهم ممن قطعت لهم الاقطاعات المختلفة المساحات والمميزات حسب أهمية الاشخاص ويساعد هاتين المجموعتين السابقتين طبقة الأجراء من المزارعين الذين يفلحون ويحراثون ويشغلون في المزارع.



أوراق في التاريخ الاقتصادي

- في إطار هذه المجموعات التي تشدها الروابط الاجتماعية والمصالح الاقتصادية تبرز بؤادر الائتمان الزراعي والعقاري المتصل بالأرض مباشرة كما يبرز الائتمان التجاري والرهنوي اللذين يتصلان بالمنتجات بصورة تبعية.

- يبرز الائتمان بشتى انواعه في مجالات حاجة المزارعين إلى سلفيات تنفق على الارض في إعدادها وفي الحاجة إلى البذور والادوات والحيوانات وما شاكل ذلك في كل ما تقتضيه متطلبات الإنتاج الزراعي (يستنتج من مختلف الدراسات ان الصيارفة يتوسطون اما لتسليف البذور عينا لأغراض الإنتاج الزراعي او لغيره وان يسلفوا آلات بمثابة العارية او يقرضوا مقادير من الفضة بمثابة نقود وفي كل الاحوال قد تُحْمَل السلف بفوائد - هامش في الكتاب ص 36).

- لا يمنع في الحقيقة قيام معاملات الائتمان بين الناس في كل مكان بمحض الثقة السائدة بين أطراف التعامل لان العبرة بالثقة ذاتها والتي هي مصدر الائتمان ولكن اتساع نطاق الائتمان وتعقد عملياته اقتضى تثبيت العمليات بوثيقة يتفق عليها الطرفان تبرز عندما يجد بين الطرفين خلاف ويطلق على هذه الوثائق لفظة (صكوك او سندات او ادوات) الائتمان. فإذا علمنا ان لا عبرة ولا أهمية في ان تصنع هذه الادوات من الورق او الاحجار او الطين او المعدن طالما يتوفر فيها مفهوم الوثيقة بذكر طرفي التعامل ومبلغ المعاملة وتاريخها فإننا نستطيع بناء على هذا ان نعتبر ان العراقيين الأقدمين اول من اخترع صكوك التعامل الائتماني والمصرفي باعتبارهم أقدم شعب حقق مفهوم الوثيقة واستخدمها في معاملاته كل ما في الامر انهم صوروها على الطين برموزهم المسمارية البابلية مشتملة على كل شروطها الشكلية.



أوراق في التاريخ الاقتصادي

- أهم ما يستدل على وجود واستخدام الصكوك الائتمانية هي النصوص في شريعة حمورابي والرسائل التي كانت المعابد والتجار تحررها على الاشخاص الذين يرتبطون بصلة تجارية او زراعية وكذلك الوثائق الخاصة بتسليم البضائع ... الخ الالواح الطينية التي وجدت في بابل واور وسييار في عهود مختلفة وبمقادير هائلة تتجاوز بضعة الاف حيث كانت تدون معاملاتهم في الاقراض والإيداع والرهن على ألواح من الطين.

- سنحاول ان نستخلص مجموعة العمليات المصرفية الشائعة:

- 1- قبول الودائع المختلفة لغرض حفظها سواء كانت بضائع تجارية او اغراض بيتية كالحلي والاحجار الكريمة.
- 2- اجراء تسليف القروض الموثوقة برهن او بكفالة او بضمان.
- 3- اجراء عمليات الترحيل او التحويل البسيطة واجراء عمليات التصفية او التسوية لجهات اخرى بقصد تامين المدفوع في مدينة لارسا مثلا لمصلحة عميل في بابل.
- 4- استلام أموال بقصد توظيفها لقاء دفع فوائد على هذه الأموال.
- 5- القيام بدفع الاقساط لحساب العملاء.
- 6- القيام بالدفع لمصلحة العملاء من الأموال التي تم استلامها كودائع.
- 7- القيام بمهام مكتب التسجيل للعقود.

- نستطيع ان نميز جملة انواع من الودائع او عمليات الإيداع:

- 1- من حيث طبيعة المواد المودعة - وداائع خاصة للحبوب وامثالها وهي تشمل القمح والشعير والتمور والفواكه وغيرها مما يتماثل في جنس ونوعية هذه المواد.



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق في التاريخ الاقتصادي

ودائع خاصة بالمعادن وهي تشمل الفضة والذهب والنحاس والمواد النفيسة والاحجار الكريمة.

2- من حيث مدة الإيداع - هناك ودائع لدى الطلب حيث ان المودع لديه مُلزمٌ دائماً برد الوديعة بمجرد الطلب وان هذا النوع من الودائع كان يعم غالبية المواد المعرضة للتلف وهناك ودائع لمدة معينة قد يدوم إيداعها مدة تقرب من سنة.

3- من حيث الاستثمار حيث تتصل فكرة الاستثمار بتجارة الصيرفة والائتمان اتصالاً شديداً من حيث ان كلاهما تتجهان إلى غرض واحد هو الربح كواحد من الاهداف المقصودة

ونميز في عمليات الإيداع من هذه الناحية:

ودائع تصلح ان تكون موضوعاً لتجارة الائتمان او الصيرفة وهي تتألف بصورة عامة من المعادن وعلى رأسها الفضة باعتبارها وسيلة التقييم والتبادل لبقية المعاملات والمبادلات الاستثمارية كما تتألف من الحبوب وعلى رأسها القمح الذي قام احياناً بدور الفضة.

ثم ودائع لا تصلح ان تكون موضوعاً لتجارة الصيرفة وهي بمنزلة الإعارة والأمانة أقرب منها إلى الوديعة المصرفية.

- لم يظهر مطلقاً في عمليات الإيداع القديمة ما يدل على ان الودائع كان يتقاضى اصحابها عنها فوائد وانما كانت المؤسسات الائتمانية البابلية تنال فقط حق الحصول



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق في التاريخ الاقتصادي

على الفوائد في مقابل تقديم القروض للمعوزين ولأهل الحاجة ولعل هذه الواقعة هي التي شجعت على قيام الصيرفة في العراق القديم في بابل وفي المعابد على وجه الخصوص عبر تاريخ تطورها باعتبار انها مؤئل الحماية والثقة والأمان في التعامل الاقتصادي برمته.

المؤسسات الائتمانية والمصرفية

- مجموعة الملاك حيث يجتمع على صعيد هذه المجموعة فئتان من الأفراد الذين مارسوا الصيرفة إلى جانب أعمالهم الأولى من الملاك الاغنياء والتجار.

- مجموعة المعابد وصيارفتها - ان الصيارفة من الكهنة والمعابد لهم دورهم الاهم في الاقتصاد البابلي باعتبارهم القادرين على امتلاك ثقة اوسع لدى الفلاحين والمزارعين والتجار وارباب الحرف والاعمال وذلك لما تتمتع به هذه المجموعة من مركز ديني رفيع في المجتمع البابلي. يتبين من هذا ان الكهنة لم ينقطعوا للديانة والعبادة فقط مع اهلهم واسرهم وبطانتهم وانما تولوا القيام بالشؤون الدنيوية إلى جانب امور الدين.

- مجموعة المصارف - ما بين القرن السادس عشر والقرن السادس قبل الميلاد. حققت المصارف البابلية اتساعا عظيما في تجارة الصيرفة في كل المجالات سواء كان في الداخل بالنسبة للمدن الكبيرة او في الخارج مع مصر ومع الإمبراطورية الحثية ومع الميثانيين ومع كل بلدان شرق البحر المتوسط (الميثانيون هم السكان الذين سكنوا شمال العراق واستولوا على المنطقة فترة من الزمن تربو على قرنين ابتداءً من سنة 1500 ق.م (انظر حاشية الكتاب ص 78).



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق في التاريخ الاقتصادي

- من المصارف الخاصة

مصرف ايجيبي، من مجموعة المصارف الحقيقية الخاصة التي عاشت جنباً إلى جنب مع المصارف المعبدية وأنه كان اهم المصارف التي مارست اعمالها على سبيل التخصص وبنطاق كبير. ثم مصرف موارشو، مارس هذا المصرف تجارة الصيرفة خلال فترة طويلة تقرب من قرن وعاصر حكم الملك الفارسي (داريوس الثاني او خوس). ومصرف اينازير، وهذا المصرف بمثابة شركة تمويل وصيرفة يساهم في دعمها وادارتها مجموعة من الأفراد.

وهناك فئة من المصارف الصغيرة يمكن للقارئ المهتم الرجوع اليها في الكتاب الذي يحتوي على 125 صفحة من القطع المتوسط.

(*) كان عميداً لكلية الإدارة والاقتصاد في السنوات 1964-1966 وكذلك 1974-1977.

(**) د. محمد علي رضا آل جاسم، الائتمان والصيرفة في العراق القديم (بغداد: مطابع دار التضامن، 1963-1964). طبع بمساعدة من جامعة بغداد.

(**) باحث وخبير تجاري

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الاشارة إلى المصدر.

<http://iraqieconomists.net/ar/>